كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

فهذا المكر الذى ظنه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خَصْمه ، ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولَيْته يبور وتنتهى المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرُّ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٠) ﴾[فاطر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب يعنى : لهم عذاب أى : استحقوه وكأن العذاب يحرص عليهم كما يحرص الإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينفك عنهم .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾

تعرضت هذه الآية لقضية الخَلْق الأول للإنسان الخليفة ، وهذا الخَلْق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خُلق خَلْقاً أولياً من مادة الأرض ، وهى التراب الذى يُخلط بالماء ، فصار طيناً ، هذا الطين مَرَّ بأطوار عدة ، فالطين إنْ تركْتَه حتى يعطن وتكون له رائحة فهو الحمأ المسنون ، فإنْ تركته حتى يجفَّ ويتماسك فهو الصلصال ، فهذه - إذن - أطوار للمادة الواحدة التى صَوَّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخَلْق الأول الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمُّ التناسل والذرية .

وقبل أنْ يتكلم الحق سبحانه عن خَلْق الإنسان تكلَّم عمَّا خلقه الله للإنسان قبل أنْ يُوجد ، فتكلَّم سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (١) ﴾[فاطر] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحى إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض .

هذه كلها مُقوِّمات حياة الإنسان ، أوجدها الله له قبل أنْ يُوجده هو ، وضمن له مُقومات حياته المادية والمعنوية الروحية ، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، والروحية بالمنهج والقرآن ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن]

فالإنسان خُلق لغاية ، كالصانع يحدد غاية الشيء المصنوع قبل أنْ يبدأ فيه ، وقُلْنا : إن الذى صنع (التليفزيون) أو الثلاجة لم يصنعها ثم قال : انظروا فيمَ تُستخدم هذه الآلة ، إنما قدَّر غايتها ، وحدَّد هدفها قبل صناعتها ، كذلك الحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان قدَّر حركته فى الحياة وما يسعده فيها ، فوضع له منهج القرآن قبل أنْ يُخلق ، ثم جاء خَلْق المادة بعد وَضْع المنهج .

والحق سبحانه حينما يتكلَّم عن خَلْق الإنسان ، يقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ (١١) ﴾[فاطر] فجاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقُلْ سبحانه أنا خلقتُكم ، فكأننا نقول : الله خلق الإنسان من تراب ؛ ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتى على ثلاث صور : ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو .

فالمتكلم حين يتكلم يقول : أنا فعلتُ . من الجائز أن يُكذَّب ، فإنْ خُوطب : أنت فعلت . من الجائز أنْ يُنافق ، لكن إذا جاء الأسلوب بصيغة الغائب : هو فعل ، فقد برئنا من الادعاء فى المتكلم ، ومن النفاق فى المخاطب .

وحين نقول هو خلق يعنى : ليس هناك غيره ، وسبق أن قلنا :

إن ضمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وإذا استقرأتَ آيات الخَلْق فى القرآن الكريم تجدها بأسلوب الغيبة فى مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩)﴾[البقرة] وآخره سورة الفلق :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾[الفلق] وبأسلوب المتكلم فى ست وسبعين آية ، مثل :﴿ .. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وبأسلوب المخاطب فى أربعة مواضع هى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ (١٩١)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب ؛ لأن الحديث عن غائب يخلو من ادعاء ، ويخلو من نفاق المواجهة ، أو نفاق الخطاب .

لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء : الخَلْق إيجاد من عدم لحكمة أو لغاية مُسْبقة ، لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا أخذت قطعة كبيرة من طين جاف ورميتَها على الأرض ، فإنها تتفتتْ قطَعاً مختلفةَ الأشكال ، وربما وجدت منها على شكل هلال ، وأخرى على شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان .

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعَدُّ خَلْقاً ؛ لأن الخَلْق إيجاد مقصود لغاية مقصودة ، وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه .

فإنْ قلتَ : كيف والله تعالى يثبت لنا خَلْقاً فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

قلنا : إن الخالق سبحانه يُقدِّر مجهودات البشر ، ولا يبخسهم حقوقهم ؛ لذلك يثبت لهم المشاركة فى الخَلْق مع الفارق الواضح بين خَلْق الله وخَلْق غيره ، فإذا وُصف الإنسانُ بأنه خالق ، فالله أحسن الخالقين ؛ لأنه سبحانه يخلق مِن عدم ، وأنت تخلق من موجود ، وخَلْقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خَلْق الله فيتطور وتدبّ فيه الحياة فيتغذّى وينمو ويتناسل ..إلخ .

ومثَّلْنا لذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويُحوِّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقْتَ شيئاً ؛ لأن هذا الكوب لم يكُنْ موجوداً ، فأوجدته ، لكن من مادة موجودة مخلوقة لله ، وعقل فكّر هو من مخلوقات الله ، ونار صهرتْ هى من خَلْق الله .

ثم إنك لا تستطيع أنْ تمنح هذا الكوب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، إذن : إن أثبتَ الله لك خَلْقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ (١١) ﴾[فاطر] وفى مواضع أخرى قال : ﴿ مِّن طِينٍ (٢) ﴾ [الأنعام] وقال ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] وقال : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن] ولا تعارضَ بين هذه الأقوال ؛ لأنها أطوار للمادة الواحدة كما بينَّا ، كالثوب الذى تلبسه تقول : هذا الثوب من القطن ، أو من الغزل ، أو من النسيج ، فهى مراحل تمر بها المادة الواحدة .

فليس فى هذا تناقض فى المراحل ، إنما التناقض فى أنْ يكون الشىء مرتبة واحدة ، ثم تجعله مراتب ، إنما هذه المسألة مراحل للمرتبة الواحدة ، كالطفل يصير غلاماً ، ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كَهْلاً.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد .

الحق سبحانه حكم فى كونه بأشياء ، ونهى العقل أنْ يفكر فى أشياء ، قال : أنا خلقتُ لك الكون والمادة ، وضمنتُ لك مُقوِّمات حياتك ، فإنْ أردتَ أن تُرقِّى نفسك فأعمل عقلك فى المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قَدْر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خَلْق السموات والأرض وخَلْق الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾[الكهف]

فخَلْق السموات والأرض وخَلْق الإنسان مسألة لم يشهدها أحد منكم ، ولم يكُنْ مع الله سبحانه معاون يخبركم بما حدث ، لكن احذروا سيأتى فى المستقبل مُضلُّون يُضلُّونكم فى هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المضلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتهبة ، وحدث لها كذا وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ، ولا تأخذوا معلوماتكم إلا ممَّنْ شهدها ويعلمها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له منافذ يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى العقل أنْ يتأمل ما يراه ويستدل به على ما لا يراه .

نحن لم نشهد عملية الخَلْق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نَقْضٌ للخَلْق ، كما أن الهدم نَقْضٌ للبناء .

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إنْ أردتَ هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت نقيض الحياة .

فالذى لم نشاهده من عملية الخَلْق أخبرنا الله به فى كتابه ، فقال : خلقتكم من تراب صار طيناً ، ثم صار الطين حمأ مسنوناً ، وصار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، تشكَّل على صورة الإنسان ، ثم نفخ فيه اللهُ الروحَ فدبَّتْ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الخَلْق ، فأول شىء فى الموت أنْ تفارق الروحُ الجسدَ ، فيتصلَّب حتى يكون كالفخار ، ثم يرمَّ ، وتتغير رائحته كأنها الحمأ المسنون ، ثم تمتصُّ الأرضُ ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفُتَات يختلط بتراب الأرض، ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن : خُذْ مما شاهدتَ دليلاً على صدق ما أخبرك الله به مما لم تشاهده .

الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلَّم عن الخلق تكلم عن مرحلتين : الأولى : خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم التكاثر لعمارة الأرض كانت المرحلة الثانية بأنْ خلق له زوجه ، فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

والظنُّ يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من آدم وخلق منها حواء ، ويصح أنْ تكون هذه القطعة كذلك كانت من الطين ، لكن اكتفى بالتشريع الأول للرجل ، ومن آدم وحواء أنشأ النسل ، وتم الاستخلاف فى الأرض .

ولكى نخرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول : قوله تعالى

﴿ وخلق منها زوجها ① ﴾ [النساء] يعنى : من جنسها ، من جنس خَلْقها ، كما قال سبحانه : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ⑫⑧ ﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم .

لكن ، أيخلق الله هذا الخَلْق ، ويستخلف خليفته فى الأرض ، ثم يتركه دون أنْ يُمدَّه بالمنهج الذى حكم حركة حياته ؟ لا ، لا بُدَّ أنْ يُنزل له المنهج ؛ لأن معنى الخلافة تقتضى أنْ يُوجد هذا المنهج .

والحق سبحانه حين يُملِّك خليفته أشياء تأتمر بأمره ربما غرَّه ذلك الملك فقال له : اذكر أنك لستَ أصيلاً ، وأنك خليفة ، وطالما تتذكر أنك خليفة فلن تطغى ، إنما الذى يُطغيك أن تظنَّ أنك أصيل فى الكون ، والأصيل فى الكون هو الذى يحفظ ما وُهب له ، هو الذى لا يمرض ولا يموت ، ولا يوجد معه مَنْ هو أقوى منه . إذن : تذكَّر أنك مُسْتخلف ، وما دُمْتَ مستخلفاً فعليك أنْ تنفذ أوامر مَن استخلفك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخَلْق الأول من تراب وخَلْق الزوجة ، يُحدِّثنا عن الخَلْق العام الذى سيأتى منه البشر جميعاً بعد آدم وحواء ، وبالتزاوج يتم الخَلْق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه ﴿ ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ جعلكُمْ أَزْوَاجًا ⑪ ﴾ [فاطر]

وفى موضع آخر فصَّل مراحل النطفة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ⑤ ﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم تمَّ بالتباعد ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطن أخرى ، وهكذا كان التباعد بحسب زيادة النسل قَدْر المستطاع ، ومسألة التباعد هذه هى التى أدتْ إلى أول جريمة

قَتْل فى البشرية ، وهى مسألة قابيل وهابيل . فلما اتسعتْ الدنيا ، وكَثُر الناس مُنِع زواج الأخت والخالة والعمة.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد فى الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر نسلاً أضعف من زواج الأباعد ، حتى فى الزراعة أثبتوا أن زراعة الحبوب المستخرجة فى نفس أرضها يعطى محصولاً أقلَّ ؛ لذلك لجئوا فى الزراعة إلى عملية التهجين .

والنبى ﷺ يحثُّ على هذا التباعد ، فيقول : « اغتربوا لا تضووا[1] »[2] يعنى : لا تتزوج شديدة القرابة منك ؛ لأن الأقارب خصائص وجودهم واحدة والدم واحد ، أما فى الاغتراب ، فالخصائص مختلفة والدم مختلف ؛ لذلك يأتى النسل أقوى ؛ لذلك فطن الشاعر العربى إلى هذه المسألة ، فقال[3] :

أُنذِرُ مَنْ كَانَ بعيد الهَمِّ   تَزْويج أولادِ بنات العَمّ

فليسَ بنَاجٍ من ضَوى وسَقَم   بأبى وإنْ أَطْعمتَهُ لا يَنْمي

وقد لاحظوا ضَعْف النسل فى الأُسَر التى تزوج أولادها من الأقارب ، ومدحوا الاغتراب ، فقال الشاعر :

---

(١) ضوى يضوى ، هو الولد يخرج ضعيفاً . ورجل ضَاوٍ إذا كان ضعيفاً . ومعنى لا تضووا ، أى : لا تأتوا بأولاد ضاوين . [لسان العرب - مادة : ضوا] .

(٢) مما ورد فى هذا ما ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيائه (٢/٤١) : « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يُخلق ضاوياً » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء : « قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قلت : إنما يُعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم ، فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . قال الشوكانى فى (الفوائد المجموعة ص ١٣١) : « ليس بمرفوع » .

(٣) ذكرهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ولم يعزهما لأحد . وانظر أيضاً « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى .

فَتَىً لم تلدْهُ بنْتُ عَمٍّ قريبة   فيضْوَى وقد يَضْوى سَلِيلُ الأقَارب[1]

وآخر يبتعد عن بنت عمه فى الزواج رغم حُبِّه لها ، ويقول :

تَجَاوزْتُ بنتَ العَمِّ وهْىَ حَبيبةٌ   مَخَافَةَ أنْ يَضْوىَ علىَّ سَلِيلُها

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر] عمليـة حَمْل الأنثى تتم نتيجة الالتقاء بين الذكر والأنثى تحت مظلة الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل فى مسألة حمل المرأة ، أهى المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سمعنا من التحاليل التى أجرَوْهَا أنَّ الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أما المرأة فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك .

وعجيب أن تفطن المرأة العربية القديمة إلى نتائج العلم الحديث الآن ، وأن يكون لديها إلمامٌ وفَهْم لهذه المسألة ، فالمرأة البدوية التى كانت لا تنجب إلا البنات ، فغضب عليها زوجها ، وذهب فتزوَّج بأخرى لتنجب له الولد ، وهجر الأولى ، فأنشدت وقالت[2] :

مَا لأبى حَمْزةَ لا يَأْتينَا   غَضْبانَ ألاَّ نَلدَ البَنينَا

تَاللَّه مَا ذَاكَ فى أيدينَا   ونحن كالأرْضِ لغَارسينَا

* نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطينَا *

وعجيب أنْ تتكلم البدوية بما توصَّل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، فسداد الرأى لا يجتمع

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبيانى ، ولكن لفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله هنا :

فتى لم تلده بنت أم قريبة   فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وقد ذكره الخالديان فى « الأشباه والنظائر » وعزواه إلى أعرابى يذكر ابنه بلفظ الشيخ إلا قوله « الأقارب » فهو عندهما القرائب .

(٢) ذكر هذه الأبيات مع اختلاف فى اللفظ ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد - باب قولهم فى النوادر والمُلَح :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان أن لا نلد البَنينا   وإنما نأخذ ما أعطينا

وهوى النفس ؛ لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى ، ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وَفْق ما يراه ، وما ذَاك إلا لسلامة فطرته .

وقوله : ﴿ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (١١) ﴾[فاطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ، ثم وضعتْ حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر - سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضعه .

والإعجاز الذى يصاحب عملية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة حال الدورة الشهرية يتحول عندما تحمل إلى غذاء للجنين ، فكأن هذا الدم ليس رزقاً لها ، بل رزق ولدها إنْ قُدِّر لها الحمل ، وإن لم يُقدَّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشيء .

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ، ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدتْ سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة يعنى : لم ينقص من وزنها شيء ، وكأن الخالق عز وجلّ يذكّرنا قبل أنْ تحملوا هَمَّ القوت والأرزاق انظروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فلكُلٍّ منكم رزق لا يتعدَّاه ولا يُخطئه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة »[(١)] .

ومع تقدُّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة فى علم الله ﴿ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (١١) ﴾[فاطر]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٠٧) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥٩) كتاب الأشربة ، وابن ماجه فى سننه (٣٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله .

لماذا ؟ لأننا نعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى التصق (الزيجوت) فى الرحم ؛ لذلك فإن أطباء الولادة دائماً ما يقولون ستضع الحامل بين كذا وكذا من الأيام .

إذن : لحظة الولادة أشبه ما تكون فى خفائها بلحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعنى : يعلمها بكل ما يحيط بها من ملابسات وأحداث .

وبعد أنْ تضع المرأةُ حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيُجرى لها الخالق سبحانه رِزْق ولدها لترضعه دون أنْ يأخذ من رزقها شيئاً ، لأن إمداد الله لها مستمر ، والشيء ينقص إنْ أُخذ منه دون إمداد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (١١) ﴾ [فاطر] يُعمَّر يعنى : يمد الله فى عمره ، وعندنا فى اللغة أفعال ملازمة للبناء للمجهول ، فمثلاً نقول : زُكم فلان لأنه لم يجلب لنفسه الزكام ، كذلك نقول : فلا عُمِّر . هو لم يُعمِّر نفسه ، إنما عمَّره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعَمَّر ، والمُعمَّر يعنى : طويل العمر .

وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها ، قالوا : كيف يُعمَّر بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول : هم معذورون ؛ لأنهم لا يعلمون أن فى اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير .

فتقول مثلاً : قابلتُ فلاناً فأكرمتُه ، فالهاء فى أكرمته تعود على فلان هذا ، وتقول : تصدقتُ بدرهم ونصفه . فهل يعنى هذا أنك تصدقتَ بدرهم ، ثم أعدته ثانية ونصَّفته ؟ لا إنما المعنى : تصدقت بدرهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحدة ،

ومرة يعود على واحد من مثله ، كما فى : تصدقت بدرهم ونصفه .

والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته ما يطرأ على الذات من أوصاف ، فكَوْنه معمَّراً يعنى بلغ سناً كبيرة ، وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود على بعض ذاته ، فالمعمَّر ذاتٌ ثبت لها التعمير ، فعلامَ يعود الضمير فى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة لا نستطيع أنْ نُميته فى سنِّ العشرين مثلاً .

إذن : أعد الضمير على الذات دون الصفة ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ، ولا ينقص من ذاته ، فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله ، فيصير المعنى مثل : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدَّثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ (١١١) ﴾ [البقرة]

وقالوا : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (٨٠) ﴾ [البقرة]

فردَّ الله عليهم : إنْ كنتم ضمنتم الجنة ، وأنه لا يأخذها منكم أحد ، فتمنَّوْا الموت الذى يوصلكم إليها : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾[البقرة]

فمعنى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] يعنى : من عمر ذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله .

وقوله ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ (١١)﴾[فاطر] أى : فى اللوح المحفوظ ، فكلُّ ما يحدث فى الأعمار وفى فترات الحمل والوضع من الإنقاص أو الزيادة ، كله مُسطَّر معلوم فى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾[فاطر] فإنْ كان صعباً عليكم وعلى فهمكم فهو يسيرٌ وسهلٌ على الله سبحانه.

ألاَ ترى لسيدنا زكريا عليه السلام وهو يدعو الله أنْ يرزقه الولد الصالح الذى يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر ، وأىّ ذرية بعد هذا السِّن خاصةً إنْ كانت الزوجةَ عاقراً ؟ لكن ، إنْ كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور .

واقرأ :﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

إذن : لا تقسْ المسألة على قدرتك وقانونك ؛ لأن الفعل يُنسَب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى - عليه السلام - لما تبعه فرعون بجنوده حتى حاصره وضيَّق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] ولم لا والبحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فقال موسى قولةَ الواثق بربه وقدرته التى لا حدودَ لها ﴿قَالَ كَلَّا (٦٢)﴾ [الشعراء] يعنى : لن يدركونا ، قالها بما لديه من رصيد الثقة بالله ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] فجاءه الفرج لتوِّه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء]

رأى موسى طريقاً يابساً يشقُّ البحر ، فعبر هو وقومه إلى أن

أصبح فى الجانب الآخر ، فأراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، فلا يعبره فرعون ، لكن نهاه ربه ، فالمعجزة لم تنته بَعْد ، وما زال لها بقية ، والله تعالى قادر على أنْ يُنجي ويُهلك بالشيء الواحد ، وظل الطريق اليابس على يبوسته حتى اغترَّ به فرعون ، فعبره ليلحق بموسى ، ولما نزل آخر جندى من جنود فرعون أطبقَ اللهُ عليهم الماءَ ، وأعاده إلى سيولته ، فأغرق فرعونَ وجنوده ، هذه طلاقة القدرة التى لا تحدُّها حدود ، ولا تخضع للأسباب .

كذلك تأمل مسألة الخَلْق والتكاثر تجد جمهرة الناس جاءوا من ذكر وأنثى ، وهذه هى القاعدة ، لكن قدرة الله لا يُعجزها أنْ تأتى بالخَلْق فى كل مراحل القسمة العقلية المنطقية فى هذه المسألة ، فالخالق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب . إذن : نقول الأمر هَيِّن يسير على الله ، وإنْ ظننْتَهُ أنت صعباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[1] سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

(١) الفرات : العَذْب . فقوله تعالى : ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ..(١٢)﴾ [فاطر] فرات للتوكيد ، فهو عذب عذوبة بالغة . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . وقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. (١٢)﴾ [فاطر] تأكيد لشدة ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُقرِّب لنا القضية العقلية القيمية فيعرضها لنا فى صورة حسية مُشاهدة ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] وكأن الله يقول لنا : كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى فى الحسِّ ، كذلك فى القيم أشياء لا تستوى .

معنى ﴿الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] البحر معروف ، وهو المتسع الذى يحوى الماء المالح ، وسُمِّى النهر أيضاً بَحْراً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] إذن : هما وعاء لشىء واحد هو الماء ، فهما وإن اشتركا فى الشىء الواحد وهو الماء فهما مختلفان فى النوع :

هذا عذب ، وهذا مالح ، العَذْب وُصف بأنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] أى : شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ (١٢)﴾[فاطر] سهل المرور فى الحَلْق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] شديد الملوحة .

وبين العَذْب والمالح عجائب فى التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ونأكلها ، فلا نفرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العَذْب ؛ لأن الله أعدَّ الكائن الحى ليأخذ من الماء مقوِّمات حياته ، وينفى ما لا يريد ، مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من الأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه .

ففى التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتتغذى الشجرتان بنفس العناصر ، وتُسْقَى بنفس الماء ، لكن يخرج الطَّعْم مختلفاً تماماً ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (٤) ﴾ [الرعد]

وهذه فطرة وغريزة جعلها الله فى كل الكائنات الحية ، أن تأخذ من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أنْ يُقرِّبوا لنا عملية التغذية فى النبات قالوا : إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعيرية ، فالشعيرات الجذرية تمتصُّ الماء والغذاء من التربة وتُوصِّله بهذه الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فَاتَهُم أن الأنابيب الشعيرية تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ، ودون انتخاب لمادة دون أخرى . إذن : ليست هى الخاصية الشعيرية ، إنما هى الغريزة والفطرة الإلهية التى أودعها الله فى الكائن الحى .

والإنسان تطرأ عليه مسائل غريزية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل عقلية : فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا دخْلَ للتشريع فيها ؛ لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها ، فأحببْ مَنْ شئتَ ، واكره مَنْ شئتَ ، لكن شريطة ألاَّ يُخرجك الحب أو الكُرْه عن حَدِّ الاعتدال إلى الظلم والتعدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. (٨) ﴾ [المائدة]

كذلك المسائل الغريزية لا يتدخَّل فيها الشرع ، فالجوع والعطش مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالتجربة ، فأنت لا تُعلِّم ولدك الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يجوع وحين يعطش .

لذلك عجيب الآن أنْ نسمع مَنْ ينادى بتعليم الأولاد والبنات فى

---

(١) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] والشنآن : البغض والكره .

المدارس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التربية الجنسية) يتعلَّمها الأطفال منذ الصِّغَر ، ونقول : سبحان الله متى يُسمح للصغار بتعلُّم الغرائز ، الغرائز لا تُعلم ، بل يعرفها الإنسان فى وقتها المناسب .

ومن عجائب الخَلْق أن الماء العَذْب لا يختلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح فى البحار والمحيطات الكبيرة دائماً ما نجد منسوب المياه فيها أقلَّ من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لَطَغى الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة .

ومعنى ذلك أنْ تموت المزروعات وتفسد التربة ؛ لذلك شاءتْ حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مَصبَّات تنتهى إلى البحار لتفرغ فيها الماء الزائد عن الحاجة .

وللخالق سبحانه حكمة فى الماء العَذْب ليكون صالحاً للشرب ولسَقْى الزرع ويروى العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطن ؛ لأن البحار والمحيطات هى مخازن الماء العَذْب ، فمنها يتبخر ماء المطر الذى تجرى به الأنهار ، وتلحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء فى بحر البلطيق أقلَّ ملوحة ، لأنه مصبٌّ لعدة أنهار ، ويقع فى منطقة كثيرة المطر ، وهذا كله يُقلِّل من مُلوحته .

أما البحر الميت مثلاً ، فهو أكثر البحار ملوحة ، لدرجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، والسبب أنه لا توجد أنهار تصبُّ فيه ، ويقع فى منطقة حارة ، قليلة المطر ، فيكثر تبخُّر الماء منه ، أما بقية المياه الملتقية فى البحار والمحيطات فتكاد ملوحتها تكون واحدة .

وسبق أنْ ذكرنا الحكمة من اتساع مساحة الماء المالح فى البحار والمحيطات ، وقُلْنا : إن اتساع سطح الماء يزيد فى نسبة البخر ليتوفر الماء العَذْب الصالح للريّ وللشرب ، ومثَّلْنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إنْ سكبْتَهُ على أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعت مساحة التبخر .

إذن : وسَّع اللهُ سطحَ الماء المالح ليعطينا المطر الكافى لاستمرار الحياة ، إذن : لا يُذَمُّ الماء المالح إنْ قُوبل بالعَذْب ؛ لأنه أصل وجوده.

لذلك قال الشاعر[1] فى المدح :

أهدى لمجلسه الكَريم وإنَّما ... أهدى له ما حُزْت من نَعْمائهْ

كَالبَحْرِ يُمطِره السَّحَابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليه لأنه مِنْ مَائهْ

ومعلوم أن الماء فى الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) ﴾ [الذاريات]

فالماء الذى خلقه الله فى الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فما يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبول وعرق.. إلخ وما تبقَّى فى جسمه من نسبة المائية وهى ٩٠ فى المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهى إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك : إن

---

(١) هذان البيتان من قول هبة الله الاسطرلابى ، وقد ذكرهما له ابن معصوم فى كتابه « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصْر » .

الله قادر على إعادتها فَخُذْ من المُشَاهَد دليلاً على صدْق ما غاب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلٍّ ..(١٢) ﴾[فاطر] أى : من الماءيْن العذب والمالح ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾[فاطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العَذْب كما فى الماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مالحة كالفسيخ مثلاً أو السردين ، ذلك لأن الكائن الحىَّ يمتصُّ ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾ [فاطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أنْ يُؤكل طرياً طازجاً ، فإن يبُسَ وخرج عن طراوته فلا تأكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحمُ القديد ، حيث كانوا يُجفِّفون لحم الأنعام فى حَرِّ الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأنعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إنْ خرجتْ عن هذا الوصف ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٢) ﴾ [فاطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نعَم البحر : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢) ﴾[فاطر] والحلية ما يُتزيَّن به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فللرجل أنْ يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نَهْى عن شىء منها ، وحتى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلى بها لمن ؟ للزوج .

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] أى : السفن فى البحر ﴿ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] يعنى : تشقّ البحر شَقّا فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهنا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَب به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم تخاطب أمته من باطن خطابه ، ورسول الله ﷺ لم يركب البحر ولا رآه .